

استراتيجيات التخاطب ومقاصد الخطاب في "كليلة ودمنة" لابن المقفع

د. عمر بلخير

مقدمة

يمكننا أن نصرح في بداية هذا البحث أن نص كليلة ودمنة يحتوي على نمطين تواصلين متطابقين يلتقيان في رغبة ابن المقفع في تبني فلسفة الفيلسوف بيدا ومقتضيات خطابه، نظرا لما وجد فيه من حكمة هو بحاجة إليها لتقويض الوضع السائد في زمانه والناجم عن فساد في الحكم، "لقد كان ابن المقفع صاحب عقل وأدب، تم نضجه الفكري في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور، وكان ابن المقفع من بين الأدباء الذين اشتغلوا عنده بالكتابة والترجمة والتأليف، وكان يدرك من حقيقة جبروت المنصور ما لا يدركه غيره وقد صعبت عليه مواجهة المنصور بالحقيقة ونقده نقدا صريحا لا تلميحا. فاختار معه موقف "بيدبا الفيلسوف مع دبشليم الملك" فألف له كتابا سماه كليلة ودمنة على ألسن البهائم والسباع والوحش والطيور، ظاهره لهُو للعامّة وباطنه سياسة للخاصة وهو موجه إلى الملوك والوزراء يرمي إلى تأديبهم حتى لا ينحرفوا عن الحق والعدل والاستقامة... لأن حياة الملوك في البلاط مليئة بالمكائد والسعائيات وهم مغرمون في تقريب الناس إليهم وقلة تبصرهم في الإصغاء لوشاية المحتالين وما ينتج عن ذلك من ظلم وجرائم" ¹

هذا الاقتباس الذي وضعه الباحث عمر عروة، في إحدى مقدمات كتاب كليلة ودمنة، يعكس لنا فيها من جهة النمطين التواصلين اللذين تحدثنا عنهما سابقا، ومن جهة أخرى، يعطينا فكرة عن النقطتين اللتين سنبنّي عليهما هيكل هذا البحث وهما: المقاصد الذي دفعت بيدبا إلى وضع هذا الكتاب، وابن المقفع إلى ترجمته، واستراتيجيات بيدبا في الوصول إلى اقناع الملك دبشليم بحكمته، وتبني ابن المقفع لهذه الاستراتيجيات، ضمنا وتصريحا، سعيا منه إلى اقناع الخليفة وحاشيته من وزراء ومقربين، بصحة و حكمة بيدبا أحقيتها، وبصفة ضمنية حكمته هو باعتباره متبنيها كلية.

ونص كليلة ودمنة، يعتبر في نظرنا خطابا مزدوجا إذ تتداخل فيه أقوال بيدبا الفيلسوف بأقوال ابن المقفع، وتتشابه فيه مقاصد ابن المقفع بمقاصد الفيلسوف، وتتشابه في الغاية التي يسعى فيها إلى تغيير نمط السياسة والحكم. وهذا التشابه في المقاصد يعكس تشابها

آخر في الاستراتيجيات، حيث "يرتكز دور المقاصد، بوجه عام، على بلورة المعنى كما هو عند المرسل إذ يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى"² فبمجرد أن ترجم ابن المقفع هذا الكتاب بالذات، يكون قد تبنى الاستراتيجية الخطابية للفيلسوف، مع العلم أنه رغم اتفاقهما في المقاصد، وهو تغيير حال السياسة والساسة، إلا أنهما يختلفان في المبررات، فمبرر وضع الكتاب عند بيدبا هو طلب الملك دبشليم منه أن يضع كتابا "ينسب إليه وتذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله"³. أما مبرر ابن المقفع فيمكن في "معاناة أبناء عصره من ناحيته، وما شاهده من صعاليك زمانه وملوك من ناحية أخرى"⁴ وعليه يصعب علينا أن نتكهن بنفس النتائج إذا تبنى الاثنان الإستراتيجية نفسها، فقد حظي الفيلسوف بيدبا بالشرف والكرم نتيجة إستراتيجيته الخطابية العامة، وقتل ابن المقفع ومُثلَّ به نتيجة الإستراتيجية العامة اتجاه مخاطبيه، وذلك يعكس الدور الخطير للسياق العام الذي ينجز فيه الخطاب: "ورغم احتياط ابن المقفع الكبير في تعبيره عن حاجة المجتمع بالنقد الاجتماعي والسياسي بلسان الحيوان، فإنه لم ينج من العقاب"⁵.

مقاصد بيدبا الفيلسوف في تأليفه لـ "كلیلة ودمنة"

مهما تعددت الدراسات التي أنجزها الباحثون حول كتاب كلیلة ودمنة، فإن المقاصد والدواعي التي ألف لأجلها الكتاب "تتجلى بوضوح في خطاب بيدبا، ونكاد لا نجد أثرا لمقاصد ابن المقفع في النص ذاته، ويجمع النقاد والمؤرخون على أن مقاصد ابن المقفع يستحيل التصريح بها نظرا لمرتبه ووضعه الذي لا يحسد عليه في عصر الخليفة أبي جعفر المنصور، وإن اختلاف ظروف بيئة الفيلسوف هي التي جعلته يصرح عن مقاصده وينجز استراتيجيته تلك، فيعلن بيدبا عن مقصده ويبنى إستراتيجيته انطلاقا من ذلك، ويتبنى ابن المقفع إستراتيجية الفيلسوف دون أن يعلن صراحة عن مقاصده، وقد وجدنا ما يدعم قولنا هذا عند عبد الهادي بن ظافر الشهري حين يقول: "... وفريق آخر يرى أن العبرة هي بالقصد الظاهر من صيغة العقد، أي ما يتلفظ به المرسل، حتى لو لم تتفق مع قصده الباطن، لأنه يصعب التأكد من المقاصد عند مخالفتها لمقتضى الألفاظ..."⁶. فقد كان ابن المقفع بتبنيه لحكمة الهنود القديمة في الحياة، يدرك طبيعة العصر الذي عاش فيه، وهو عصر يحتاج إلى ثورة في العمق من أجل أن يتغير، مع إدراكه أيضا أنه قد يصاب بما

أصاب **بيدبا** أو بأشد منه حينما هرع إلى **دبشليم** ليسدي له النصيحة. فقد قصد **بيدبا** النصيح للملك صراحة، ولم يصرح **ابن المقفع** بهذا الفعل نفسه عند ترجمته لخطاب **بيدبا**. وعليه، فإن دراسة خطاب الفيلسوف **بيدبا**، قد يساعدنا في استكشاف مقاصد **ابن المقفع** لفهم الغاية التي من أجلها تبنى نفس الاستراتيجيات الخطابية.

فقد صرح **بيدبا** لتلاميذه بمقصده في التصدي لطغيان الملك **دبشليم** بقوله: "إعلموا أنني أطلت الفكرة في **دبشليم** وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية..." (ص08)، وقد بنى الفيلسوف فكرته هذه على سنن الكون في الشعوب والمجتمعات التي تقضي بأن فساد الحكام سيطل جميع فئات المجتمع بدون أي استثناء بما فيهم العلماء إذا سكت هؤلاء عن هذا الفساد. وقد أثبت لنا الكتاب من بدايته إلى نهايته أن العلم والمعرفة هما مصدرا الفضيلة والسؤدد، وجاء ذلك واضحا على لسان الشخصيات البشرية والحيوانية في الكتاب، فالضمير "نحن"، في عبارة "إلا لنردهم (الضمير) هم يعود على الملوك المتجبرين) إلى فعل الخير ولزوم العدل ومتى أغفلنا ذلك لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا..." (ص08) يعود على الفيلسوف وتلاميذه (بالمعنى القريب)، ويشمل (بالمعنى البعيد) كل الأشخاص الذين هم في مرتبة علم الفيلسوف في كل زمان ومكان. هذا الموقف يتبناه **ابن المقفع** بقوله: "ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل وبيتغون إخراج ما عندهم من العلل..." أما ما جاء على لسان الحيوان، فقد كثرت فيه عبارة: "فقد قالت العلماء..." "قال العلماء قالوا..." "إن العلماء قد كتبوا..." ويقول رشيد بن مالك: إن **بيدبا** يثمن، على مستوى المعارف، القوة العقلية المجسدة في الحيلة والتي تفهم في هذا المساق على أنها الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور⁷.

نجد **بيدبا** إذن يصرح بمقاصده لتلاميذه، وينكرها عليه هؤلاء لما عرفوه من بطش الملك وجبروته، ولخوفهم من فقدان معلمهم: "أيها الفيلسوف الفاضل والحكيم العادل أنت المقدم فينا والفاضل علينا، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك، غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التماسح تغرير والذنب فيه لمن يدخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجره على نفسه، فليس الذنب للحية ومن دخل

على الأسد في غابته لم يأمن وثبته، وهذا الملك لم تقزعه النوائب ولم تؤدبه التجارب، ولسنا نأمن عليك من صورته ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يجب" (ص11).

فقد علمتهم التجربة أن الملوك الجبابرة سيستكرون بشدة مقاصد الأشخاص وأفعالهم حينما تنحو في سبيل غير السبيل الذي انتهجوه، ومعرفتهم لمعلمهم جعلهم يستنتجون أنه سيصرح بما يختلج في قلبه من مقاصد للملك الجبار الذي سيقوم بعقابه. وما تعنت بيدبا في مشروعه إلا لمعرفة بالسنن الكونية للإنسان، وقلة تجربة تلاميذه لمعرفة هذه السنن، فهو يدرك ما للفلاسفة والحكماء من احترام في قلوب الملوك مهما بلغوا في جبروتهم من شدة، وهو ما يعكسه قول دبشليم حينما دخل بيدبا إلى بلاطه، إذا كان للملوك فضل في مملكتها فإن للحكماء فضلا في حكمتها أعظم، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالملك... (ص12) إلا أن الملك لم يكن صادقا فيما قاله للفيلسوف، ويعود السبب في ذلك إلى أنه لم يدرك تماما مقاصد بيدبا رغم معرفته من قبل، وذلك حينما أعلن عند حضوره إلى القصر، أن بيدبا كان يبغى نصح الملك، لذلك ألفناه يقول حينما أعلن عن حضوره ومعه للملك نصيحة: "وسكت وفكر دبشليم في سكوته وقال: إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين، إما أن يلتمس منا شيئا يصلح به حاله، أو لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة... (ص12).

ونحن بإعلاننا ذلك، نشاطر الأستاذ رشيد بن مالك فيما ذهب إليه حينما يقول إن النصيحة (التي تشكل على حد تعبيره النص الإطار لحكايات كليلة ودمنة) تغذي دلاليات الحكايات التي رويت على لسان الحيوان، والنصيحة ستجعل بيدبا يسخر مجموعة من القيم لصناعة عالم دلالي تشيد عليه الحكايات.

ويقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: "وما الاستراتيجية التي يستعملها المرسل في الخطاب إلى وسيلة تتجسد باللغة لتحقيق المقاصد"⁸

وعند انتهاء بيدبا من كلامه للملك، مسديا له النصيحة، قال، مصرحا عما دفعه إلى حضوره إلى قصره، وهو بذلك يقوم بتصحيح الملك فيما يتعلق بما اعتقده في قضية حضور بيدبا: "فلم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به ولا التماس معروف تسوقه إليا، ولكن أتيتك ناصحا مشفقا عليك" (ص17). وتصريح بيدبا هذا فيما يتعلق بمقاصده الخطابية هو الذي جعل رد فعل دبشليم فظا وغليظا، مما جعله يأمر بقتله وصلبه...

يبدو أن الملك لم يفهم ما صرح به بيدبا حينما جاء إليه لإسداء النصيحة، وقد حمله على ذلك قوته وجبروته من جهة، وطبيعة المستبدين الذين لا يقبلون النقد والمشاركة في السلطة، من جهة أخرى. ويبدو أنه حينما تذكر ما للعلم والعلماء من قوة على أمور الدنيا وقضاياها، وقد تجلى ذلك فيما قاله لنفسه حينما فكر فيما فعله في الفيلسوف الذي جاء قاصدا اصلاحه ورشده: "لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف وضيعت واجب حقه، وحملني على ذلك سرعة الغضب وقد قالت العلماء أربعة لا ينبغي أن تكون في الملوك الغضب... والبخل... والكذب... والعنف في المحاورة..." (ص18).

وبعدها أمر الملك بإحضار بيدبا فعفا عنه ورفع من مقامه وعاد التلاميذ فرحين إلى معلمهم، فوجدنا هذا الأخير يعيب عليهم تشكيكهم فيما قصده حينما شاورهم حتى يذهب إلى الملك، "لست أشك في أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلت إن بيدبا قد ضاعت حكمته وبطلت فكرته إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغي، فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري وإني لم آت لأني (...). أسمع من الحكماء من قبلي تقول إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء..." (ص20).

إلى أن يصل إلى قول نعتبره أشد درجات العتاب: "...فحملتها على التغيرير وكان على ذلك ما أنتم معاينوه، فإنه يقال (وهو خطاب موجه مباشرة إلى التلاميذ) في بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: إما بمشقة تتاله في نفسه وإما بوضعية في ماله أو وكس في دينه، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب" (ص21).

إن عملية التشكيك هذه، مردها إلى عدم بلوغ التلاميذ الدرجة التي تسمح للغير باعتبارهم علماء، نظرا لعدم توفرهم على الخصال التي ذكرها لهم بيدبا، والتي حملته على مواجهة الملك الجبار.

عموما يمكن القول إن ابن المقفع يشاطر بيدبا في كل ما ذهب إليه، على اعتبار أن الظروف السياسية والاجتماعية لابن المقفع وبيدبا متشابهة، وعليه كان يشاطره في مقاصده، لأن الاستراتيجية التي تبناها لمواجهة الخليفة ومقربيه، هي نفسها التي واجه بها بيدبا الملك دبشليم. وقد تأكدنا من أن ابن المقفع قد قام بتكييف ترجمته لكليمة ودمنة لتناسب مع عقلية العربي في زمانه، وإلا لما أصابه ما أصابه جراء مواقفه السياسية

وخطاباته النقدية للسياسة والساسة، ودلينا على ذلك ما جاء على لسان ابن المقفع حينما صرح: "وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر وبلتمس جواهر معانيه ولا يظن أن نتيجته الاخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع وثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود" (ص55).

الاستراتيجيات التخاطبية

أشرنا في الصفحات السابقة، إلى الارتباط الوثيق لمقاصد المتكلمين بالاستراتيجيات التي يتبناها المتخاطبون من أجل تحقيق مقاصدهم. فالاستراتيجيات هي وسيلة تحقيق المقاصد، وقد أدركت اللسانيات الحديثة وبخاصة التداولية- أنه يستحيل فهم دلالات الخطاب الصريحة منها والضمنية، ما لم نفهم المقاصد التي وُجدت وراء انتاجه. وقد توصل علماء الأصول والفقه وعلماء البلاغة العرب القدامى إلى ربط الخطاب بمقاصد المتكلمين وقد رأينا في عمل سابق كيف ينتقل المعنى الصريح إلى معنى آخر غير مصرح به⁹، وقوفاً على السياق ومقصد المتكلم، وحصر ما نغونو وشارودو مفهوم الاستراتيجية التخاطبية في فضائين: فضاء من العقاب يحتوي على معطيات دنيا لا بد أن تتوفر ليكون الفعل اللغوي متحققاً، ثم هناك فضاء الاستراتيجيات الذي يحيل على الخيارات الممكنة للمتخاطبين أثناء مشهدة الأفعال اللغوية¹⁰. ولا تتحقق العملية التخاطبية إذا لم يتوفر هناك عامل العقد الذي يضمن الاستقرار والقابلية على توقع السلوكات بصفة تمكن الذات المتكلمة من اللعب بمعطيات العقد أو داخل هذه المعطيات، وإن تحديد الاستراتيجيات اللغوية يتمحور حول عدد من الرهانات، منها رهان إضفاء الشرعية الذي يحدد وضعية سلطة المتكلم، ورهان الصدق الذي سعى إلى تحديد وضعية صدق المتكلم، ورهان الإثارة الذي تكمن الغاية منه في حمل الآخر على المشاركة في العملية التبليغية، انطلاقاً مما يدور في خلد المتكلم.

لقد انطلق بَيَدَبَا في فعل النصح للملك من حقائق متعارف عليها متوقفة على مجموعة من العقود التي تربط الملوك بالفلاسفة والعلماء، فقد كان مدركا، ضمنيا، قيمة العلم والعلماء عند الملك، رغم استبداده وتجبره، ويعرف أيضا أن النفس الإنسانية رغم زوغانها وانحرافها على الحكمة والرشاد، إلا أنها ما تلبث أن تعيد صاحبها إلى الحق والسبيل القويم، هذه الحقيقة كان ابن المقفع يدركها، نظرا لعلمه الغزير واطلاعه الواسع على مختلف المعارف والتجارب الإنسانية السابقة كونه فارسي الأصل واللغة والثقافة والمنشأ، ونحن ندرك بحق ما

للحضارة الفارسية القديمة من عظمة، وهذا قد يفسر سبب لجوء **ابن المقفع** إلى ترجمة هذا الكتاب التي نعتبرها تنبياً لاستراتيجية **بيدبا** في الإقناع والتأثير على أفكار الآخرين ومعتقداتهم، فقد جاءت قيمة تقديس العلم والعلماء من بين أهم القيم التي تنبأها الفيلسوف **بيدبا** كأرضية للحجاج مع الملك، بل هي القيمة المحورية للكتاب، لذلك ما تلبث شخصيات الكتاب الحيوانية والإنسانية، أن تعود إلى هذه القيمة كلما لزم الأمر ذلك؛ إن دمنة في مرافعة للدفاع على نفسه حينما ألصقت به تهمة تحريض الأسد على قتل الثور، حاول أن يستشهد بأقوال العلماء وحكمهم وتجاربهم، وقد تناثرت عبارات من قبيل قالت العلماء... فالعلماء قالوا... والعلماء كتبوا... كقيمة مطلقة على جل قصص الكتاب. فقد اعتمد **بيدبا** على العديد من الظواهر الخطابية والحجاجية، تدخل فيما يتجلى عند بيرلمان في الآراء الشائعة والقيم المشتركة والقيم وهذه التقنيات التي لم يخل **بيدبا** و**ابن المقفع**، في توظيفها ضمن الاستراتيجيات الخطابية، قد أتت ثمارها لدى **بيدبا**، حيث نجح في إقناع الملك بتغيير نهجه في سياسة رعيته. فقد عرفنا¹¹ الرأي الشائع باعتباره مجموع الأفكار التي شاعت في مجتمع معين وتقادمت في الزمن، وصار الرجوع إليها ضرورة حجاجية، مثل الأمثال والحكم وعبقرية الشعوب، فمن بين الآراء الشائعة التي جاءت على لسان **بيدبا** "فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير، والجهال يشيرون بضده"، أو ما قاله **بيدبا** لتلاميذه، وقد أوردناه سابقاً، في أن "من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب".

أما مقدمة **بيدبا** في محاولة إقناع **دبشليم** بالعدول عن جبروته، فقد ضمنها مجموعة من القيم التي يتعين على أي شخص في مرتبة الملك أن يتصف بها ليكون حكمه راشداً وعادلاً ومستمراً في الوجود، فمن هذه القيم ما جاء في قوله: "إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من دون سائر الحيوان أربعة أشياء وهي جَماع ما في العالم وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل، والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل، والحياء والكرم داخلة في باب العفة، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل، وهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ" (ص14).

وتمثل القيم سنداً أساساً لتطويع أي حجاج والسير به نحو نتائج مقبولة، إن التذكير بها في ذاته يعتبر حجة¹²؛ وهو الأمر الذي يجعلنا نفهم إستراتيجية مقدمات **بيدبا**، فهو يذكر الملك بهذه القيم بغرض إفهامه بأنها قيم مفقودة فيه بسبب تجبره على الناس وظلمه لهم،

وهي قيم موجودة ليتصف بها كل الناس (العالم والملك)، وهناك قيم خاصة بالملوك، أوردها بيدبا على ألسنة العلماء (لم يذكرهم في هذا السياق) تارة، وعلى ألسنة الملوك (وقد تم ذكر هؤلاء) تارة أخرى، فالقيم التي جاءت على ألسنة العلماء، وردت كما يلي : "وحكي أن أربعة من العلماء ضمهم مجلس ملك فقال لهم: ليتكلم كل منكم بكلام يكون أصلا للأدب، فقال أحدهم: أفضل خلة العلماء السكوت، وقال الثاني: إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله، وقال الثالث أنفع الأشياء للإنسان أن لا يتكلم بما لا يعنيه، وقال الرابع أروح الأمور للإنسان التسليم للمقادير" (ص15). والدليل على أن هذه القيم خاصة بالملوك حتى وإن ظهرت على أنها للعلماء ولغيرهم من الناس، ما تبع هذا الكلام من استشهاد بأقوال ملوك أكبر البلدان وأعظمها في ذلك الزمان، وهي ملوك الصين والهند وفارس. وقد تقوّت حجج بيدبا حينما ذكره أن آباءه وأجداده قد دام لهم الحكم، لأنه لو لم يكن الوضع كذلك لما وصل إليه، "وأسسوا الملك وشيدوه وبنوا القلاع والحصون ومهدوا البلاد وقادوا الجيوش واستجاشوا العدة وطالت لهم المدة واستكثروا في السلاح والكرام وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور..." (ص16). وهذا يعني، إذا وقفنا على مقدمات بيدبا، أن هذا الملك لن يطول حكمه وسيتهدم كل ما بناه آباؤه وأجداده بشق الأنفس، إذ لم يتحل بهذه القيم التي ذكرها له، وهي استراتيجية اقناعية ذكية، أتت ثمارها. ولم يسلم خطاب بيدبا من استخدام استراتيجية تعدد الأصوات فهو كان يعرف مسبقا أن الملك يرفض النقد والإرشاد في أمور السياسة، ولا يتقبل الرأي الآخر، وخاصة إذا جاء من شخص فريد وحيد مثل شخص بيدبا، وهو الأمر الذي دعاه إلى الاستعانة بأصوات شخصيات معروفة (مذكورة) وغير معروفة، ختمت بعمق على الحكمة الإنسانية وتجربتها. فقد استشهد، بصفة مباشرة تارة، وغير مباشرة تارة أخرى، بأقوال العلماء والحكماء الذين يدرك الملك قيمتهم وقيمة علمهم وحكمتهم، واستشهد تارة أخرى بأشهر حكام زمانه من حكام الهند والصين وفارس، كما استشهد أيضا بما فعله وقام به آباؤه وأجداده بصفاتهم وقيمهم، ففي هذا السياق يعتبر فيليب بروتون الكفاءة (كفاءة آباءه وأجداده على بناء دولة عادلة ودائمة) والشهادة والتجربة (شهادة العلماء وحكام الهند والصين وفارس وتجربتهم) أنواع من حجج تضي على الخبر بعد الثقة.

فالعمل الكلامي الرئيس (الذي تعتبره في هذا الكتاب فعلا جامعا) الذي هو إسداء النصيحة، لم يكتب له النجاح لو لم ينبه على أساس استراتيجية محكمة تخلصها تقديم الحجج

التي لا يمكن دحضها، وهي مصوغة في مجموعة من المقدمات، مكنت الملك من فهم الدلالات الضمنية لأقوال الفيلسوف، دون أن يصرح بها، لأنه يدرك أن التصريح ضمن هذه المواقف نهايته الهلاك؛ فهو لم يقل له إنك حاكم مستبد ومتجبر وصفاتك لا ترقى إلى مستوى صفات الملوك الأقوياء والعدول، وأن حكمك لن يدوم طويلا لأنك لم تلتزم بسنن وأخلاق الملوك والأمراء العدول؛ فالملك فهم عنه ذلك بجدارة، الأمر الذي أغضبه مما حمله على الأمر بقتله وصلبه. ولكون الأسلوب الذي جاءت عليه نصيحة **بيديبا** قد أعطى ثماره في مرحلة لاحقة، فقد فكر مليا فيما فعل، وأمر بإطلاق سراحه وأكرمه ورفع من قيمته ودرجته، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حينما أمره بوضع كتاب "مشروع ينسب إليه وتذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله" (ص21).

فقد جاء في آخر كلام **بيديبا**: "قلم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به ولا التماس معروف تسوقه إلي ولكن أتيتك ناصحا مشفقا عليك" (ص18)، وهذا يعكس صدقه فيما جاء به إليه، وهذا لا يبرر استخدام الحيلة بقدر ما يستدعي استخدام استراتيجية ملائمة يحترم فيها "الطقوس" والعقود التي تتبني عليها هذه المواقف والمحادثات فمن بين هذه "الطقوس" على حد تعبير الأستاذ رشيد بن مالك احترام **بيديبا** لمقامه كفيلسوف ولمقام **دبشليم** باعتبارها ملكا. **فيديبا** لم ينس أنه في مكان يلزمه باحترام قواعده وأعرافه وطقوسه، أي أن يكون خطابه مناسبا لمقتضى الحال، فحينما طلب منه ما حاجته عند الملك، قال: "إني رجل قصدت الملك في نصيحة" (ص11) وهو في نظرنا ضرب من الاحترام والتواضع، لأنه كان بإمكانه أن يقول بدل "إني رجل"، إني فيلسوف... وعندما دخل إلى مجلس الملك "وقف بين يديه وكفر وسجد له واستوى قائما وسكت" (ص12). لم يكن هذا السكوت، في رأينا، نتيجة لخشيته من الملك، فلو كان الأمر كذلك لما انتقل إليه لينتقده في وجهه، بل إنه يدرك أن المقام الذي هو فيه (مجلس الملك) يلزمه على أن لا يتلفظ بكلمة قبل أن يأذن له الملك. وفعلا هذا ما حدث فلم يقل شيئا إلا بعدما أذن له الملك بقوله: "وأنا قد فسحت لك في الكلام" (ص13)، يقول الأستاذ بن مالك: "ومن هذه المنطقات، يمكن أن يدرك القارئ أن الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته و(استراتيجية حيلة) سخرها **بيديبا** لجس نبض الملك أولا، وحمله من دون أن يشعر على قبول الحوار ثانيا، ومن ثم جره إلى تنازلات كان مستحيلا أن يقوم بها قبل عزمه على الذهاب إليه ورفع التحدي

بمواجهته¹⁴. وخضع كلامه في بدايته إلى "طقس" آخر يتعلق بآداب الحديث إلى الملوك، ويتمثل في الدعوة له ببقاء الملك ودوامه نظرا لتشريفه إياه بسماعه لنصيحته: "أول ما أقول إنني أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد ودوام ملكه على الأمد، لأن الملك قد منحني في مقامي هذا محلا جعله شرفا لي على جميع من بعدي من العلماء وذكرنا باقيا على الدهر عند الحكماء" (ص13). ويقصد ببدا بهذا الأسلوب (أو الطقس) تحضير الملك من الناحية النفسية ليتقبل ما سيجيء به من خطاب قد يفشل في إنجازه إذا دخل مباشرة في مضمونه، لأن منطق ببدا الفيلسوف يقتضي أن دوام الملك وبقائه ليس رهينا بسماع الملك لأن يجلسه في مجلسه ويسمع منه النصيحة، فهذه العملية تحتاج إلى أمور وخصائص أخرى ذكرها ببدا في كلامه المسهب مع الملك.

وقد فرض المقام على الفيلسوف أن لا يذكر بعض الكلمات والتعابير التي تشير صراحة إلى فساد سياسة الملك وتجبره على الناس، إنما اكتفى بوضع أفكاره تلك في شكل اقتضاءات نصفها بالتداولية نظرا للأثر الذي أحدثته في نفس الملك.

وعند شروعه في فعل النصيحة، لم يشر مباشرة إلى أخلاق الملك وأفعاله وصفاته، بل تحدث بصفة عامة عن الأخلاق والصفات التي يتوجب على الإنسان التحلي بها لتكون أعماله راشدة وخيرة وصالحة للناس، معتبرا حديثه هذا واجبا من واجبات العلماء والفلاسفة اتجاه الحكام، فهذا الأسلوب لا يمكن له إلا أن يجعل الملك يفهم حقيقة معاني الفيلسوف ودلالاته حينما حضر بين يديه، رغم مخاطبته إياه بأسلوب يتجنب فيه (وهو ما يقتضيه المقام) الاستخدام المتواتر للضمير أنت: "إنني أسأل الله تعالى بقاء الملك"، "لأن الملك قد منحني..."، "قد عطف علي الملك..."، "والأمر الذي دفعني إلى الدخول على الملك..." (ص13)، فهو في مقام يخاطب فيه شخصا أرفع منه درجة اجتماعية، تقتضي مخاطبته استخدام أسلوب يليق بمقامه.

إن لمعرفة ببدا آداب الحديث وأخلاق الحوار، الأثر الإيجابي على الملك ويتمثل أولا: في إعادة النظر في قراره الذي تمثل في قتل ببدا وصلبه، ثم سجنه فقط، وبعدها إخراجه من السجن وتكريمه إياه، وثانيا، في طلبه أن يضع له كتابا يخلد اسمه على غرار آبائه وأجداده، وهذا كله بسبب حجج ببدا التي لا تقبل الرد والدحض نتيجة ابنائها على ما هو

مشترك بين العام والخاص، من جهة، وقدرته على إرسال خطابه باحترام القواعد التي تحكم الإنسان في ذلك المقام، من جهة أخرى.

ويمكن القول، انطلاقاً من نظرية أفعال الكلام، إن الفعل الكلامي الجامع الذي طغى على كتاب كليله ودمنة، هو فعل النصح، وذلك نظراً لطبيعة الموضوع ولمقاصد بيدبا في وضعه وابن المقفع، لاحقاً، في ترجمته، والنصح في هذا المقام غايته إصلاح وضع سياسي واجتماعي سائد؛ غير أن هذا الفعل الكلامي الجامع تتخلله أفعال كلامية جزئية تقوم كلها بخدمته، معنى ذلك أن اختيار الكاتب الأفعال الكلامية الجزئية، لا يكون إلا لتدعيم الفعل الكلامي الجامع وتشكيله، وبأسلوب آخر، وكل الأفعال الكلامية الجزئية تخدم الغرض الذي من أجله صيغت في ذلك الخطاب.

ومن يقرأ كتاب كليله ودمنة، يشده فعل كلامي آخر يصعب تصنيفه ضمن الأفعال الكلامية الجامعة، تماماً أو الأفعال الكلامية الجزئية، إنه الاستعارة، فهي من حيث الصيغة لا يمكن لنا أن نأتي بها في عبارة أو جملة كأن نقول زيد أسد ولكن من حيث كثرتها ودلالاتها في نص كليله ودمنة وفي وضعها أساساً، فهي فعل كلامي جامع، فنص كليله ودمنة نص استعاري بالنسبة لوضعه بيدبا، لأنه قصد منه استعارة دلالات جاءت على السنة الحيوانات تشبه دلالات وعوالم خاصة بعالم البشر، فنقول إن كليله ودمنة هو استعارة الحكم الراشد والأخلاق الحسنة والسياسية السليمة.

هذا هو إذن السبب الذي جعلنا نتحدث عن الاستعارة باعتبارها فعلاً كلامياً جامعاً. ولا أدل على ذلك من إقدام **ابن المقفع** على ترجمتها، مبيناً معانيها ودلالاتها، رغبة منه في تغيير وضعية حكامه الفاسدة، كما فعل بيدبا قبل ذلك بقرون، فإذا كانت الاستعارة تتشكل على نحو زيد ثعلب (للدلالة على مكر زيد وخبثه)، وهي فعل كلامي جزئي، فإن قولنا كتاب كليله ودمنة هي الحكم الراشد وحسن أخلاق الحكام والعلماء، هي الفعل الكلامي الجامع.

وقد أثبتت التداولية في العديد من الدراسات التي أجريت على الاستعارة أن الغاية من وضع الخطاب الاستعاري هي التأثير في المستمعين¹⁵. لذلك اعتبرنا الاستعارة فعلاً كلامياً، والعلاقة الاستعارية على حد تعبير الفيلسوف طه عبد الرحمن، هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج.

عليه سنستعرض في هذا المقام بعض العلاقات التي تخللت كتاب كليلة ودمنة، فهناك ما أسميناه استعارة السفينة التي جاءت للدلالة على حسن تسيير الملك وتديره لشؤون مملكته: "أرى السفينة لا تجري في البحر إلا لملاحين لأنهم يعدلون لها، وإنها تسلك اللجة بمديرها الذي تفرد بإمرتها ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق" (ص 23).

ثم هناك ما أسميناه استعارة الشخص الجامع للعلوم (وليس العالم) "من غير إعمال الروية فيما يقره كان خليقا أن يصيبه ما اصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز بعض المفاوز فظهر له بوضع آثار الكنوز، فجعل يحفر ويطلب فوق على شيء من عين وورق فقال في نفسه، لئن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلا طال علي وطمعتني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه... ثم جاء بالحمالين فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطيق وينطلق به إلى منزله فيفوز به حتى إذ لم يبق من الكنز شيء انطلق خلفهم إلى منزله فلم يجد فيه من المال شيئا لا قليلا ولا كثيرا، وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره" (ص 46).

والنص هو استعارة عن سوء جمع الشخص للعلوم وقراءة الكتب دون أن يعي ما يقرأ ويستفيد منه.

أما الاستعارة الثالثة فقد أسميتها "استعارة السارق"، التي تنطبق على الإنسان الذي يعرف مضامين كتاب كليلة ودمنة ولم ينتفع منه "وإن لم يفعل ذلك كان مثله كالرجل الذي زعموا أن سارقا تسور عليه وهو نائم في منامه فعلم به فقال: والله لأستكن حتى أنظر ما يصنع ولا أذعره ولا أعلمه أني قد علمت به، فإذا بلغ مراده قمت إليه ونغصت ذلك عليه، ثم إنه أمسك عنه وجعل السارق يتردد وطال ترده في جمع ما يجده، فغلب الرجل النعاس فنام وفرغ اللص مما أراد وأمكنه الذهاب، واستيقظ الرجل فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به، فاقبل على نفسه يلومها وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص إذ لم يستعمل في أمره ما يجب" (ص 48)، هذه الاستعارة نعتبرها تحريضا من قبل **ابن المقفع** للقارئ الافتراضي أو الواقعي الموجود في عصره على الثوران على النظام السياسي الفاسد، وفي الوقت نفسه تحذيرا من عدم فعل ذلك.

فقد جاءت الاستعارات في هذا الكتاب كحجج لتدعيم المزاعم والأفكار التي يعلن عنها السارد، ونقصد ببدا أثناء مخاطبته القارئ الافتراضي أو الواقعي، ونقصد به أيضا ابن المقفع بمخاطبته القارئ الواقعي في عصره.

خاتمة

بعد هذه الجولة القصيرة في عالم كليلة ودمنة، استطعنا أن نفهم الازدواجية التي احتواها كلام بيدبا التي تبناها ابن المقفع بجدارة، وضمن اقتضاءاته فيها لتخدم مقاصده التي تلنقي في عدد من النقاط مع مقاصد بيدبا، سواء أكان ذلك في خطابه مع دبشليم المتلفظ له الواقعي، أو القارئ الافتراضي في الحكايات على ألسنة الحيوانات. ويبدو أن ابن المقفع قد تبنى بأسلوب شبه كلي الإستراتيجية التخاطبية لبیدبا، ويتجلى ذلك من خلال نقطتين أساسيتين: تكمن الأولى في أن النص تمت ترجمته، فكان من الطبيعي إذن أن تتجلى هذه الاستراتيجيات كما هي في النص الأصلي. أما الثانية، فباعتبارها أن المترجم خائن، حسب تعبير المقولة الإيطالية القديمة، فإن ابن المقفع قد استغل هذه الحقيقة لكي يضمن اقتضاءاته وايدولوجيته وفلسفته في هذا النص لكي يصير النص، في اللاوعي، نصه واقتضاءات النص اقتضاءاته. فقد استطاع أن يحترم القيم العربية الإسلامية للخطاب العربي بترجمته لنص ينتمي إلى ما أسماه الدكتور طه عبد الرحمن "المجال التداولي" الهندي الوثني.

ملخص المقال

يتناول هذا المقال بعدين خطابيين لنص ابن المقفع، يتجلىان في المستويات الدلالية والتداولية لخطاب ابن المقفع من جهة، وخطاب شخصيات القصص من جهة أخرى. فقد تداخلت خطابات كل هؤلاء إلى درجة صعوبة معرفة المتكلم الحقيقي، ولم ينج واضعو هذه القصص من هذا التداخل. وعليه جاءت هذه الدراسة مؤسسة على معرفة المقاصد الخطابية للمتخاطبين والأساليب التي تتجلى عليها هذه المقاصد في شكل استراتيجيات مختلفة.

الهوامش

- 1- عبد الله ابن المقفع (2000)، كلية ودمنة، دار الحكمة للنشر، الجزائر، تقديم: د. عمر عروة، ص 4.
- 2- عبد الهادي بن ظافر الشهري (2004)، استراتيجيات الخطاب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 180.
- 3- كلية ودمنة، ص 21.
- 4- مقدمة الدكتور عمر عروة (طبعة 2000).
- 5- استراتيجيات الخطاب، ص 186.
- 6- رشيد بن مالك (2006)، قراءة سيميائية في كلية ودمنة لعبد الله ابن المقفع، مجلة "بحوث سيميائية" مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - ومركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية الجزائرية.
- 7- عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق، ص 187.
- 8- بلخير، عمر (2003)، تحليل الخطاب المسرحي في منظور النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- 9- D. Maingueneau, P. Charaudeau (2002), dictionnaire d'analyse du discours, paris, seuil, p549
- 10- عمر بلخير (2006): معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحافي الجزائري المكتوب ما بين 1988 و 2000، رسالة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، ص 232.
- 11- نفسه، الصفحة نفسها.
- 12- P. Breton (1996), l'argumentation dans la communication, paris, la découverte, p.p 51-53
- 13- رشيد بن مالك، المرجع السابق، ص 35.
- 14- المرجع نفسه، ص 37.
- 15- أنظر في ذلك: طه عبد الرحمن (1998)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الفصل الرابع من الباب الثاني.
أنظر أيضا:
- G. Golder (1996), le développement du discours augmentatif, Lausanne-Delachaux et Niestle.